مجلة الحكمة للدراسات الإسلامية
Eissn : ...-..... Issn : 2353-043X
المجلد 07/ العـدد 01: (2020)، ص: 97- 126

إعجاز القرآن عند المفكر الإسلامي محمد قطب- دراسة تحليلية نقدية.

The miracle of the Qura'an according to the Islamic thinker Muhammad Qutab.
Critical Analytical Study

الأستاذ: فتحي بودفلة.
جامعة الجزائر.

الملخص:

يحول المقال الوقوف على نظرة المفكر الإسلامي محمد قطب رحمه الله لإعجاز القرآن الكريم، ويتتبع ما ذكره من أوجه هذا الإعجاز ومجالاته، ثم يتبع ذلك بدراسة تحليلية نقدية لنظرته هذه.

الكلمات المفتاحية: محمد قطب، إعجاز القرآن، أوجه الإعجاز، الإعجاز الدعوي، الإعجاز التربوي، الإعجاز التشريعي، الإعجاز العلمي

Abstract :

The article tries to present the point of view of the Islamic thinker Muhammad Qutb, God have mercy on him, on the miracles of the Noble Quran, and traces what he mentioned aspects and areas of these miracles, then follows this presentation with an analytical and critical study

Word key : Muhammad Qutb, miracles of the Noble Quran

المؤلف المرسل: **فتحي بودفلة**

المقدمة:

المطلب الأوّل: ترجمة محمد قطب[1]

محمد قطب إبراهيم حسين شاذلي ، ولد بتاريخ 26 أبريل 1919م في بلدة موشا بأسيوط مصر، والده مزارع لم يتجوز التعليم الابتدائي لكنه كان مثقفا معدودا في مفكري القرية ووجهائها، وأمّه السيدة فاطمة عثمان من عائلة محبّة للعلم أكثر أفرادها تخرجوا من الأزهر الشريف أشهرهم أحمد حسين الموشي كان صحفيا مشهورا وشاعرا كبيرا وأديبا معروفا في زمانه...

انتقل إلى القاهرة مع أخيه سيد قطب حيث تدرج في مراحل التعليم إلى أن التحق بجامعة القاهرة حيث درس اللغة الإنجليزية وآدابها وتخرّج منها عام 1940م، ثم تابع تعليمه في معهد التربية العالي المعروف باسم (معهد المعلمين العالي) تخصص التربية وعلم النفس، التحق به سنة 1941م.

وقد كان لأخيه سيد قطب - الذي يكبره باثني عشر عاما - الأثر الكبير في نشأته وتربيته، والإشراف على تثقيفه وتوجيهه، فقد تربى في حضنه؛ طوال تواجده معه بالقاهرة، وازداد هذا التأثير بعد أن توفي الوالدان وأصبح سيد بمثابة الوالد لأخيه...

كما تأثر محمد قطب بخاله الذي كان قريبا -فكريا- من العقاد؛ فاجتذبه إليه وإلى مدرسته وتصوره النقدي والفكري.

عمل محمد قطب بالتدريس لمدة أربع سنوات ، ثم عمل بإدارة الترجمة بوزارة المعارف بمصر لمدة خمس سنوات، ثم عاد لوظيفة التدريس لمدة عامين، كما عمل في دار الكتب المصرية، حيث أشرف على مشروع (الألف كتاب) الذي كان يقد أهم الكتب بأثمان زهيدة...

1 ينظر: محمد المجذوب، علماء ومفكرون عرفتهم، دار الشواف، الرياض، الطبعة الرابعة 1992م، 275/3...

أدخل محمد قطب السجن أوّل مرة في التصادم الأوّل بين الضباط الأحرار وجماعة الإخوان المسلمين سنة 1954م، اعتُقل في السجن الحربي مع أخيه لكنه لم يلتق به، وأفرج عنه قبل سيد الذي قضى في السجن عشر سنين.

في السجن الحربي شاء الله أن يتحوّل فكر محمد قطب وينتقل من تصور الشاب المضطرب وفكر المراهق المتفلت إلى الداعي إلى الله، المنافح عن كتاب الله، الملتزم بقضايا أمته...

خرج من السجن ليتكفل بالعائلة في غياب أخيه سيد...الذي لم يخرج إلاّ سنة 1964م...

بقي سيد عاما واحدا خارج السجن ليعاد اعتقاله واعتقال جلّ أفراد العائلة، ويتعرضوا لأبشع أنواع التعذيب، هذا التعذيب الذي قضى فيه أحد أفراد العائلة وهو ابن الشقيقة الكبرى ...

حكم على سيد بالإعدام وقتل، وحُكِم على الشقيقة الصغيرة بعشر سنوات، وكان حظ مفكرنا من هذه المحنة تعرضه للتعذيب والتنكيل وقضاء ما يقارب ست سنوات داخل السجن الحربي، الذي غادره سنة 1971م.

بعد خروجه من السجن انتقل إلى السعودية حيث بدأ مسيرة حافلة في التربية والتعليم والتصنيف متعاقدا مع جامعة الملك عبد العزيز بمكة (جامعة أم القرى فيما بعد) وعمل فيها أستاذا في قسم (العقيدة والمذاهب المعاصرة)....

له مؤلفات عدّة ومقالات عدّة ، نخصُّ بالذكر ها هنا ما له علاقة بالدراسات القرآنية والأدبية:

1. دراسات في النفس الإنسانيّة.
2. التطور والثبات في حياة البشرية
3. منهج التربية الإسلامية (بجزئيه: النظرية والتطبيق)
4. منهج الفن الإسلامي

5. دراسات قرآنية
6. حول التأصيل الإسلامي للعلوم الاجتماعية
7. قبسات من الرسول(1957)
8. معركة التقاليد
9. كيف نكتب التاريخ الإسلامي؟
10. لا يأتون بمثله!
11. من قضايا الفكر الإسلامي المعاصر
12. حول التفسير الإسلامي للتاريخ
13. دروس تربوية من القرآن الكريم
14. المستشرقون والإسلام
15. مكانة التربية في العمل الإسلامي

من أشهر تلامذته الذين أشرف على رسائلهم وأطروحاتهم وتأثروا بفكره ومنهجه الدعوي: سفر الحوالي، محمد القحطاني، علي العلياني، علي الحربي، سعيد بن مسفر القحطاني.....إلخ

توفي رحمه الله يوم الجمعة 4 أبريل 2014م، بمدينة جدة في مستشفى المركز الطبي العالمي عن عمر يناهز الخمسة وتسعين عاما.

ينطلق الأستاذ محمد قطب في نظرته لإعجاز القرآن الكريم من كونه يتجاوز بناءه وشكله إلى مضمونه ومواضيعه؛ فإعجاز القرآن الكريم عنده ليس مقتصرا على جانبه البياني[2]، بل يتعداه لما سماه بالإعجاز الدعوي، والتشريعي، والتربوي، والعلمي...[3] يقول رحمه الله: "...لكن القرآن لم يكن معجزا في بنائه اللفظي وحده ! وإن كان إعجازه اللفظي كافيا -وحده- للدلالة على أنّه من عند

2 محمد قطب، لا يأتون بمثله، دار الشروق، القاهرة، الطبعة الثانية 1420هـ 2004م. ص9.

3 المصدر نفسه ص10

الله، وكافيا - وحده- لإقامة التحدي أمام الإنس والجنّ إلى قيام الساعة ! القرآن معجزٌ في جميع مجالاته، وعلى جميع أصعدته..." [4]

المطلب الثاني: الإعجاز البياني

بدأ المفكر محمد قطب حديثه عن الإعجاز القرآني بوجهه البياني باعتباره أشهرها، والأكثر اهتماما وتداولا، وبيّن رأيه فيه من خلال مجموعة من المعالم الفكرية أذكرها فيما يأتي:

1. الأستاذ في حديثه عن الإعجاز البياني يشير إلى كثرة ما كتب فيه، ويذكر أنّه لن يزيد عليه شيئا سوى "وقفات" و"انطباعات" سريعة وخاصة...[5].
2. موقع الإعجاز البياني من إعجاز القرآن الكريم كلّه:

- الإعجاز البياني هو أكثر ما اشتغل عليه وتحدث فيه المتقدمون؛ لأنّ القرآن نزل في قوم يحسنون البيان ويتبارون فيه ويفتخرون به فتحدّاهم القرآن الكريم أوّل ما تحدّاهم ببيانه ولغته...[6]، وقد "آن" لنا اليوم أن نتحدث ونشتغل بجوانب الإعجاز الأخرى التي تناسب عصرنا "لتحدّي الجاهلية المعاصرة، التي تتخذ صورة "العَلمانية"، وترفع شعارات **العلم والعقلانية والتنوير**؛ لتفتن النّاس عن ربّهم ودينهم، وتؤلّه **الإنسان** بدلا من الله..." [7]

4 نفسه ص9

5 نفسه ص11

6 نفسه ص9

7 نفسه.

- الإعجاز البياني كافي لإثبات ربانية القرآن ، وصدق النبوة، ولكنّه ليس الوجهَ الوحيد لإعجاز القرآن الكريم[8]
- الإعجاز البياني هو إعجاز ضمن الإعجاز، أو "إعجاز فوق الإعجاز"[9] والمقصود بهذه الفوقية أو الضمنية، أنّ القرآن معجز بموضوعاته ومضامينه من خلال أحكامه وتشريعاته، ومن خلال أخباره ودعوته، وهو معجز فوق ذلك كلّه بصياغة هذه المواضيع والمضامين بلغته وبيانه ونظمه المعجز كذلك...

3. أوجه الإعجاز البياني في القرآن الكريم

صَنَّف المفكر رحمه الله الإعجاز البياني في القرآن الكريم باعتبار تواجده وانتشاره بين آياته إلى قسمين، قسم عام يشمل القرآن كلّه ويتوزع على سوره وآياته، وقسم خاص تجده في الآية الواحدة لا يتكرر في غيرها.[10]

وقد مثّل للقسم الأوّل بظاهرة التنويع، وللقسم الثاني بمجموعة من الآيات استشف فيها أوجها من الصور البيانية التي تثبت إعجازها...

أ- أولا: القسم العام

- ظاهرة "التنويع" في القرآن الكريم

يصطلح المفكر رحمه الله على تسمية ظاهرة التكرار في القرآن الكريم بالمتشابه والتنويع، فهو يرى أنّ تكرار التركيب ذاتِه - أي بلفظه هو هو - في القرآن الكريم قليل، ومواضعه محدودة، وأنّ الذي يسميه النّاس تكرارا هو في حقيقة الأمر تشابها؛ لاختلاف التراكيب ولو بحرف واحد؛ ما يؤدّي ولا بدّ إلى تنوّع دلالة هذه التراكيب ومعانيها...[11]

---

8 ينظر المصدر نفسه ص204

9 نفسه .

10 ينظر المصدر نفسه ص25-26

11 محمد قطب، دراسات قرآنية، دار الشروق، القاهرة، الطبعة السابعة 1414هـ 1993م. ص254-255

يقول الأستاذ: "إنّ التكرار نادر جدا في القرآن الكريم لا يتجاوز آيات معدودة جاءت بنصها في أكثر من سورة، ولكن الظاهرة الحقيقية ليست هي التكرار إنما هي التشابه الذي يؤدي إلى التنوع..."[12]

ويقول مبيّنا وجه الإعجاز في هذه الظاهرة اللغوية: "...وهذا التشابه الذي يؤدي إلى التنويع هو ذاته لون من الإعجاز. فالموضوع الواحد يعرض مرارا، ولكنه يعرض في كل مرة مختلفا عما سبقه نوعا من الاختلاف، فيكون جديدا في كلّ مرة، ويكون – مع التلاوة المستمرة للقرآن- متجددا على الدوام."

ويسرد المفكر رحمه الله نماذج من هذا التكرار اللفظي الذي هو في حقيقته تشابها وتنويعا، مبيّنا في كلّ مرة العنصر أو "السِّرّ" [13] وراء هذه الظاهرة البيانية، فهو يتجلّى أحيانا بتغيّر حرف واحد ومثّل له بقوله تعالى: **قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ﴿٤٠﴾ ﴾ البقرة: ٤٠

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ لَا يَعۡلَمُهُمۡ إِلَّا ٱللَّهُۚ جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓاْ أَيۡدِيَهُمۡ فِيٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَقَالُوٓاْ إِنَّا كَفَرۡنَا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِي شَكّٖ مِّمَّا تَدۡعُونَنَآ إِلَيۡهِ مُرِيبٖ ﴿٩﴾ ﴾ إبراهيم: ٩

يقول رحمه الله: "إنّ الفارق بين العبارتين حرف واحد، هو الواو التي جاءت في الآية الثانية قبل كلمة (يذبّحون)، ولكن انظر كم أحدث الحرف الواحد من

12 لا يأتون بمثله، ص11

13 المصدر نفسه ص15

الاختلاف بين الصورتين ! في الصورة الأولى ينحصر العذاب في قتل الأولاد واستحياء النساء، وفي الثانية يصبح هذا الأمر واحدا فقط من ألوان العذاب التي تصب على بني إسرائيل، وإن كان السياق يوحي بأنّه من أبرزها وأشدّها وأخبثها. إذ أجمل (سوء العذاب) وفصّل قتل الأولاد واستحياء النساء. ذلك مجرد نموذج ينفي خاطر (التكرار) الذي يتوهمه قارئ القرآن لأوّل وهلة، ويبرز بدلا منه ظاهرة (التشابه) التي تؤدي إلى التنويع....:[14]

وأحيانا يقع هذا التنويع بتغير السياق، ومثّل لهذا العنصر بالقصص القرآني، وسرد ثلاثة مواضع لقصة نوح عليه السلام [سورة هود 25-44، سورة الأعراف59-64، سورة الشعراء 105-122] أبطال القصة، أحداثها ومجرياتها، بدايتها ونهايتها...كلّ ذلك يبدو واحدا في المواضع الثلاثة حين نتأمّل في ألفاظ القصة وتراكيبها تأملا مجزأ ومنفصلا... لكن حين ننظر إليها ونقرأها كلّ واحدة على حِدة في سياقها الخاص سنجدها رغم تشابهها اللفظي، مختلفة كلّ الاختلاف في وَقْعها ودلالتها، ففي سورة هود حيث سياق السورة وموضوعها العام متعلق بإنذار النّاس لكي يحذروا عذاب الآخرة ويتقوه...وبتثبيت قلب الرسول صلى الله عليه وسلّم... وبوعظ وتذكير المؤمنين [ص16]..."كان من المناسب لهذه الأهداف الثلاثة تطويل العرض، والإكثار من ذكر التفاصيل فيما وقع بين كلّ رسول وقومه، وكان ذلك مناسبا بصفة خاصة للهدف المتعلق بتثبيت قلب الرسول صلى الله عليه وسلم وهو يلقى العنت من قومه: من تكذيبهم وجدلهم واللدد في خصومتهم... فها هو ذا رسول سابق من رسل الله قد لقى مثل ذلك العنت، وصبر عليه، ثم نجاه الله وقضى على اللذين كذبوه...."[15]

14 المصدر نفسه ص12

15 نفسه ص16

والسياق في سورة الأعراف مختلف تماما فهو متعلق بالأخذ المباغت للأمم الكافرة التي صدّت عن سبيل الله وناصبت أنبياء الله ورسله بالحرب والعداء...؛ لهذا جاء التركيز في القصة على ما يخدم هذا الهدف دون سواه وجاءت مجريات القصة مقتضبة مناسبة لسياقها وموضوعها....وهكذا في سورة الشعراء وفي جميع السور التي وردت فيها قصة نوح... تتكر الوقائع والأحداث لكن يختلف وقعها وتتنوع معانيها باختلاف وتنوع سياقاتها....

ثمّ مثَّل للظاهرة ذاتها بتعدد وتكرار صور مشاهد يوم القيامة[16]، والآيات الدالة على قدرة الله تعالى .[17]

كما أنّه يعلِّل هذا التكرار بتعليلات أخرى بعيدة عن الحقل اللغوي، فهي وسيلة تربوية قائمة على التذكير والإعادة فالحقائق الإيمانية لا تستقر في الأفئدة وتلتزم بها النفوس ولا تتحوّل إلى عمل ملموس إلاّ بفضل هذا التكرار...[دراسات قرآنية 253...] وعامل البعد الزمني بين نزول هذه الآيات قد يستدعي هذا التكرار

ب- ثانيا: أوجه من الإعجاز البياني في آيات مختلفة

قوله تعالى: قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾﴾ البقرة: ١٢٧ - ١٢٩

16 ينظر المصدر نفسه ص17-18-19

17 ينظر المصدر نفسه ص19..25

يستشفّ المفكر وجه الإعجاز في هذه الآيات من خلال تناسق أصواتها مع دلالاتها... يقول رحمه الله: "إنّ حركات المدّ في العبارات الأولى تشعرك بالاستغراق في الدعاء، والرغبة في التعبير عن مشاعر عميقة تملأ قلبيهما وهما يتوجهان هذا التوجه الخاشع بين يدي الله وهما يقيمان قواعد البيت، بينما الياء في كلمة (ويزكيهم) توحي بأنّ الدعاء قد وصل إلى غايته، وأنّه يوشك أن ينتهي، بعد أن بثا مشاعرهما لله العليّ العظيم. وحين تُصوِّر الكلمات -وهي مجرد كلمات- مشهدا كاملا جياشا على هذا النحوّ وتعطي صورة الأكف المرفوعة بالضراعة، ثم حركة الأكف وقد أوشكت أن تفرغ من الدعاء هابطة إلى أسفل....يكون هذا من الإعجاز."[18]

قوله تعالى: قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيۡهَا زَكَرِيَّا ٱلۡمِحۡرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزۡقًا ۖ قَالَ يَٰمَرۡيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتۡ هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾ ﴾ آل عمران: ٣٧

لفت انتباه الأستاذ صوت اللام في قوله تعالى (هنالك) هذا اللام الذي يستعمل للإشارة للبعيد، ليتساءل أين مكمن البُعد في هذه الواقعة ليشار إليها بهذه الصيغة.... يقول رحمه الله معلِّلا هذه الصيغة ومبيّنا وجه بلاغتها وإعجازها: "..فأين البعد هنا ؟ هذا هو المحراب، وهذه هي مريم، كلاهما حاضر قريب. وهذا هو زكريا معها في نفس المكان... لا بعد في المكان، ولا بعد في الزمان. إنما البعد في أغوار النفس ! "هنالك" في أعماق نفس زكريا تحرك الشوق...الشوق إلى الذرية. والشوق إلى الفيض الإلهي الذي يفيض بالخير، وبالرحمة وبالعطاء، وبالرضوان...

18 المصدر نفسه ص26

هل تحس مدى العمق في المشهد... العمق الواغل في أعماق النفس؟ إنه الإعجاز..."[19]

المطلب الثاني: الإعجاز الدعوي

من أوجه إعجاز القرآن الكريم التي يراها الأستاذ حَرِيّة بالذكر والاهتمام والتناول الإعجاز الدعوي، وقد عرَّفه بقوله: "ونقصد بالإعجاز الدعوي: الإعجاز في بيان العقيدة الصحيحة بكل تفصيلاتها، والإعجاز في الوصول بها إلى مكامن النفوس بحيث تستقر فيها وترسخ نقية صافية من كل غبش، والإعجاز في تحويلها -بعد بيانها وترسيخها إلى قوة فاعلة في شتّى مجالات الوجود الإنساني"[20]

انطلاقا من هذا التعريف نستطيع أن نستجلي مكمن الإعجاز الدعوي عند الأستاذ محمد قطب وصوره في القرآن الكريم في ثلاثة معالم هي:

- صفاء العقيدة بالنّص القرآني ووضوحها
- نفوذها إلى النفوس وتأثيرها فيها بالقرآن الكريم ، يقول رحمه الله تعالى في هذا المضمار: "ويدخل القرآن إلى النفوس في قضايا العقيدة من كل منافذها وأقطارها، فلا يترك منفذا لا ينفذ منه، ولا يترك مدخلا لا يطرقه ليوصل العقيدة الصحيحة إلى القلوب."[21]
- تحول هذه العقيدة بالنّص القرآني من معلومات تُتَلقى إلى ترجمة عملية في الواقع والنفوس.

من مظاهر هذا النوع من الإعجاز التي ذكرها الأستاذ وتطبيقاته ما يأتي ذكره:

- القرآن الكريم عرض أسباب الشرك ومداخله كلّها ويجليها ويحذّر منها ثم يعالجها ويبيّن وسائل الخلاص منها بأساليب وطرق بيانية لم يسبق إليها، أوّلا ولا

19 نفسه: ص27

20 نفسه: ص37

21 نفسه: ص47

يمكن أن يبلغها أو يجمعها بشر قطّ ثانيا، واستدل بمجموعة من الآيات تناولت هذه المواضيع من جهات عدّة وحيثيات شتّى...[يونس18، سبأ 35، القصص78-العلق6-7،فصلت 15، القصص 39، يس77-78، الكهف 35-36، سبأ7-8، ص4-5، غافر56، الجاثية 23، الروم29، إبراهيم 30، الأعراف 28، النحل 24-25، لقمان7، الروم58، السجدة 10، البقرة 170، الشعراء 213....]

- استعمال القرآن الكريم وسائل لغوية بيانية مختلفة، خطابية، حجاجية ، الترغيب والترهيب، الوعد والوعيد، الأمر والنهي.... إلخ... من أجل نقل العقيدة الذهنية العلمية المعرفية إلى حقيقة واقعية مرئية ومتحركة ومؤثرة في واقع الأشخاص والأمم... وقد استشهد الأستاذ بآيات عدّة لعلّ أهمّها أوّل ما نزل من القرآن بداية سورة العلق، وذكر أنّ قوله تعالى (اقرأ) في حدّ ذاته، واستعماله دون (اعلم) أو (اعرف) مطالبة من القرآن الكريم للمخاطبين به أن يعيدوا النظر فيما يعلمون، ويطالبهم بأكثر من العلم وبما هو أرقى من مجرد المعرفة بالقراءة، فخلق الله تعالى للإنسان حقيقة معلومة عند العرب الذين نزل في حقّهم القرآن الكريم، لكن عيبهم أنّ هذه المعرفة لم تفدهم في شيء، ولم يترجموها إلى واقع في حياتهم، فطالبهم أن يحولوا هذه المعرفة الصورية إلى قراءة عملية قراءة توجب الاعتراف أولا لهذا الخالق بألوهيته وربوبيته وسيادة شرعة ونفوذ أمره وإلزامية حكمه ثم القَبول بكل ما يصدر عن هذا الخالق والاستسلام والتسليم له ....[22].

- من أهم الأساليب اللغوية التي استعملها القرآن الكريم من أجل تقرير حقائقه الدعوية أسلوب التكرار والتنويع... فقد ركّز الأستاذ على هذه الأساليب

22 ينظر المصدر نفسه: ص43-44

وأكثر من ذكرها والتمثيل لها سواء في هذا الفصل أو في الفصل الذي قبله من كتاب (لا يأتون بمثله) [23]أو في كتابه (دراسات قرآنية) [24]

- من الأمثلة التطبيقية على الإعجاز الدعوي في القرآن الكريم قوله تعالى:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ ﴾ البقرة: ١٦٦

الموضوع المقصود هنا هو بيان قدرة الله تعالى من خلال الحديث عن عظم الكون الذي خلقه ويدبر أمره... فيعرض سبحانه وتعالى ظواهر معروفة عند مشركي قريش ومظاهر معلومة عندهم، لكنّه من خلال إشاراته اللغوية وأساليبه في عرضها يحييها في لنفوس بعد تبَلّدها ويُفَعِّلها ويحولها إلى حركة فاعلة وأثر واقع في النفس والمجتمع... يقول الأستاذ رحمه الله: "...لوحة عريضة واسعة حافلة بالحيوية والحركة، والإيحاءات والدلالات... إنّها مشاهد معروضة أمام الحس البشري، ولكن الحس يتبلد أحيانا فيغفل عما فيها من الإيحاءات والدلالات، ويمر بها لا يكاد يعيرها اهتماما. ولكن القرآن يحيي المشهد بأسلوبه الفريد، فينتفض حيا متحركا، فيلتقط الوجدان ما يرسله من الإشارات...." [25] ثم يتحدث مطولا عن هذه الإشارات، مِن نحو تذكير المخاطبين بكون هاذين الجرمين العظيمين الشمس والقمر مخلوقين من قِبل الله تعالى، وتلك الحركة المنتظمة والدائمة لليل والنهار والتي هي في حقيقة أمرها نموذج من انتظام الكون كلّه، لم تأت هكذا عفو الخاطر

23 ينظر في كتاب لا يأتون بمثله الصفحات 43...46، والصفحات57-58 وقبله في فصل الإعجاز اللغوي جلّ كلامه كان حول حقيقة هذا الأسلوب وفوائده في القرآن الكريم

24 ينظر دراسات قرآنية من الصفحة 253 إلى الصفحة 271.

25 المصدر ص52

بل هي من تنظيم حكيم خبير، ومثل ذلك الحديث عن الإحياء والإماتة في الآية الكريمة، وعن التطور المستمر. والموت والنهاية المحتومة...إلخ [26]

- مثّل كذلك عقيدة الإيمان باليوم الآخر في القرآن الكريم من خلال حديثه عن ظاهرتي الإحياء والإماتة[27] ، وعن عقيدة القضاء والقدر من خلال حديث القرآن عن حركة الكون المنضبطة المنتظمة والمستمرة[28]، وعقيدة الشفاعة وأثرها في تصحيح العقيدة أو إفسادها[29]، وعقيدة الإيمان بالغيب وأثرها في النفوس[30]، وأسماء الله الحسنى وعلاقتها بالإيمان[31]....

المطلب الثالث: الإعجاز التربوي

من أوجه إعجاز القرآن الكريم التي تناولها الأستاذ بالتفصيل والبيان، ما سماه "بالإعجاز التربوي" ، وقد عَرّفه بقوله: "نستطيع في كلمة مختصرة أن نقول عن الإعجاز التربوي في كتاب الله إنّه هو الذي أخرج من القبائل المتناحرة في الجزيرة العربية (أمة) لأوّل مرة في تاريخها، وليس أي أمة، إنما خير أمة أخرجت للنّاس"[32] إلى أن يقول: "وكان القرآن هو الذي حقّق هذه المعجزة...جمّع القلوب المتنافرة، فتقاربت، فاتحدت، فالتحمت، لأوّل مرة في التاريخ، وعلى نحو غير مسبوق في التاريخ...."[33]

الأستاذ في هذا الفصل يبحث في سرّ هذا الإخراج، ودور القرآن الكريم فيه، ليصل إلى نتيجة إثبات إعجاز القرآن الكريم في وسائل ومنهجية وأسلوب

---

26 المصدر ص52-68

27 المصدر ص69-76

28 المصدر ص 76-82

29 المصدر ص87-88

30 المصدر ص 88-90

31 المصدر ص90-94

32 المصدر ص95

33 المصدر نفسه ص95-96.

إخراج هذه الأمة وتغييرها... فيطرح سؤالا عن ذلك كلّه قائلا: "فأيّ شيء في هذا الكتاب هو الذي جمّع تلك القبائل المتناحرة في أمة، ثم أخرج منها خير أمة أخرجت للنّاس؟" ثم يجيب نفسه بقوله: " إذا استعرضنا الكتاب نجد أنّ القضية الكبرى فيه هي قضية لا إله إلاّ الله. ولو تحرينا الأداة التي أخرج الله بها هذه الأمة إلى الوجود، لوجدنا أنها هي قضية لا إله إلا الله ! فكيف تفعل لا إله إلا الله في القلوب والعقول، وكيف تفعل في الوجدان والسلوك، وكيف تصل في النهاية إلى بناء أمة متضامنة متماسكة من لبنات متنافرة من قبل، تأبى أن تجتمع في كيان غير كيان القبيلة...؟"[34]

من وسائل القرآن الكريم التي أفضت إلى هذا الإخراج وتمثل أوجه هذا الإعجاز التربوي ما يأتي ذكره:

- التوازن: التوازن بين مختلف الثنائيات والمتعاكسات والمتضادات ، فقد جاء القرآن الكريم يجمع بين ذلك كلّه في جوّ من التكامل والتآلف والتوازن، فلم تعد هذه النفس تعيش ذلك الاضطراب الداخلي والصراع النفسي...بل تخلّصت من ذلك كلّه وتوجهت لما هو أهم وأعظم توجهت لعبادة الله وحدة والدعوة لدينه....يقول رحمه الله معرفا هذا التوازن: "ونشير هنا إلى التوازن الذي ينشئه المنهج الرباني في النفس المؤمنة بين الرغبة والقيد، وبين الدنيا والآخرة، وبين الفرد والجماعة، وأثر ذلك التوازن في إنشاء الإنسان الصالح..."[35] ويستدل على ذلك كلّه بمجموعة من الآيات دميعها راعت ودعت إلى هذا التوازن...[36]

34 المصدر ص97

35 المصدر نفسه ص107

36 سورة الأعراف 31-32 سورة القصص 77، سورة الجاثية 13، سورة الحديد 27، سورة النساء 56-57

- الترغيب والترهيب: الترغيب في كلّ ما مِن شأنه أن يصلح الإنسان في دنياه وآخرته، والترهيب مِن كلّ ما مِن شأنه أن يفسد الإنسان في دنياه وآخرته....[37]

- بيان مواصفات الإنسان الصالح، يقول رحمه الله: "إنّها مبثوثة في تضاعيف الكتاب .. لا تكاد تخلو سورة من السور قصيرة أو متوسطة أو طويلة من إشارة إلى صفة -أو مجموعة من الصفات- للإنسان الصالح، أو -من الجانب الآخر- صفة أو مجموعة من صفات الإنسان المنحرف الذي يحذّر القرآنُ النّاسَ من أن يكونوه..." ثم يسوق مجموعة من الآيات للإشارة إلى هذا الملمح المنهجي والأسلوب القرآني في الإعجاز التربوي...[38]

- الإيمان الإيجابي بالقضاء والقدر: ليس القدر في حسِّ المسلم حجة ينفي بها المسئولية عن نفسه، وليس علّة للتقاعد وسببا للتقاعس، القضاء والقدر قوة دافعة، تمكن المسلم من الإبقاء على نفسيته إيجابية وهمته عالية، إنّ الإنسان المسلم مسئول عن أعماله وعن مآله، مطالب بالعمل في عالم الأسباب، وتقديم الجهد اللازم لتحقيق الأهداف، ولكنّه في الوقت نفسه مؤمن بإحاطة قضاء الله وقدره بكلّ شيء...مؤمن بحكة الله الموجودة في كلّ شيء... فلا سبيل بعد هذا الإيمان للحسرة والندم ولا مجال للضعف والوهن...[39]

- الولاء والبراء: تمّت هذه التربية وتمّ هذا البناء من خلال إعادة صياغة الوشيجة التي تربط المسلمين بعضهم ببعض، الوشيجة التي على أساسها يعقد الولاء والنصرة المحبة، إنّها وشيجة العقيدة ورابط التوحيد ليس إلاّ، يقول رحمه الله: "إنّ الرابطة التي يَعُدُّها الله سبحانه وتعالى ليست رابطة الدم.. وإنما هي

---

37 لا يون بمثله ص112 وما بعدها...

38 العلق 1-16، الفرقان 63-76، القلم 10-16، الإسراء 23-39، البقرة 263-265، البقرة 216، النساء 19، التوبة 37.

39 لا يأتون بمثله ص121 وما بعدها...

رابطة العقيدة. هي الرابط الأوّل والأقوى، هي العروة الوثقى.. هي التي تحكم الروابط جميعا.. فإذا انقطعت فلا رابط !"[40]

- قصص الأنبياء: من وسائل القرآن الكريم التي حقّق بها هذا الإعجاز التربوي قصص الأنبياء، هذا القصص الذي يحمل في طياته دروسا عدّة للمسلمين كلّهم، وللدعاة منهم خاصة ، هؤلاء الدعاة وهم ورثة الأنبياء، يريدهم القرآن أن يتمثلوا منهج الأنبياء أن يطلعوا على نفسية المؤمنين والطغاة، على مراحل الدعوة وسماتها التي لا تتغير ولا تتبدل...رغم تغير الأشخاص والمكان والزمان....[41]

السنن الربانية: هي قوانينه التي لا تتبدل ولا تتغيّر، كثيرا ما كان القرآن الكريم يقصُّ علينا شيئا من قصص الأوّلين أو يقدم لنا عبرة ويتبعها بقوله تعالى: قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلُۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا ﴿٢٣﴾ ﴾ الفتح: ٢٣

ومثلها الأحزاب 62، وفاطر 43... يُعَرِّف الأستاذ السنن الربانية بقوله: "والسنن هي تلك الطرق ..التي يؤدي كلّ منها إلى نهاية محدّدة في الحياة الدنيا، تترتب عليها نتيجة محددة في الآخرة."[42] وقد تنوعت هذه السنن في القرآن الكريم وتعددت، منها سنة التمكين، وإزالة التمكين، والتداول، والابتلاء، والتدافع.....إلخ[43]

- أسماء الله الحسنى: من أهمّ وسائل القرآن الكريم في تحقيق هذا الإعجاز التربوي، أسماءُ الله الحسنى التي وظفها لإخراج هذا الجيل الرباني الفريد، هذه

40 المصدر نفسه ص125

41 المصدر نفسه ص137 وما بعدها...

42 المصدر نفسه ص151.

43 المصدر نفسه ص150 وما بعدها...

الأسماء التي بثَّ القرآن بها العقيدة، وثبت بها التوحيد، وأشاع بها روح هذه الأسماء في نفوس متلقين القرآن.....[44]

الدروس القرآنية المختلفة: ذكر الأستاذ نماذج من مختلف الدروس القرآنية التي ربى بها ذلك الجيل الفريد، ويربي بها في كلّ ساعة وحين من قرأ هذا القرآن وامْتَثَلَهُ وترجمه في واقع نفسه ومجتمعه....نذكر ها هنا مثالا واحد لمثل هذه الدروس، وقف الأستاذ عند قوله تعالى: **قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ ﴾ لقمان: ١٤

] يقول رحمه الله: "...درس هائل في الحقيقة.. إنّ العلاقات كلّها، بما فيها علاقات الأولاد بوالديهم، ليست مباشرة بين بعضهم وبعض! إنّ هناك علاقة سابقة، علاقة أقوى وأشمل، تندرج تحتها كل العلاقات، حتى العلاقات التي تنشئها رابطة الدم ورابطة الرحم.. إنّها العلاقة مع الله! ومِن خلال تلك العلاقة الكبرى -وفي ظلها- تأتي كل علاقات البشر بعضهم ببعض."[45]

يقول رحمه الله في ختام حديثه عن هذه الوسائل القرآنية في تقرير وإثبات الإعجاز التربوي: "بهذه الوسائل كلّها التي ذكرناها تتم التربية في رحاب القرآن. وبهذه الوسائل كلّها أخرج الله (خير أمة أخرجت للنّاس) من تلك القبائل المتناحرة التي لم تكن لتهتدي لولا أن هداها الله، ولا لتأتلف قلوبها لولا أن ألَّف بين قلوبها. وبهذه الوسائل كلّها تكون التربية الأجيال حين يراد حقا تربية الأجيال على الإسلام. فأيّ إعجاز أعظم من هذا الإعجاز ؟"[46]

---

44 المصدر نفسه ص 166 وما بعدها...

45 المصدر نفسه ص127.

46 المصدر نفسه ص170.

المطلب الرابع: الإعجاز التشريعي

يبدأ الأستاذ حديثه عن الإعجاز التشريعي بتقرير بعض الحقائق المهمة والتي لا يمكننا الوقوف على هذا الوجه من الإعجاز إلاّ بمعرفتها ، فيبدأ أوّل ما يبدأ بالتفريق بين العقيدة الموحدة بين الكتب المنزلة جميعها والأنبياء المرسلين كلّهم، وبين الشريعة التي تختلف من رسالة إلى أخرى، ومن كتاب لآخر انطلقا من اختلاف واقعهم زمانا ومكانا وأشخاصا...[47]

ثم ينتقل بعد ذلك إلى حقيقة ثانية، هي كون الشريعة ضرورية لا يكتمل الدين دونها، فمن يزعم من المحدثين والمعاصرين أنّ الدين علاقة روحية بين العبد وربه، وأنّ الواقع بتفصيلاته السياسية والاقتصادية والاجتماعية إنّما هي شأن الإنسان وحده يشرّع فيه كيفما شاء، وأنّ حشر الدين فيه تسيس له وخوض فيما لا يعنيه...إنّما يتحدث عن دين آخر، دين جاهلي، لا يمتُّ لدين الله بصلة....[48]

بعد ذلك ينتقل لتعداد أوجه الإعجاز التشريعي في القرآن الكريم، فيذكر معالم كثيرة نوردها فيما يأتي:

- صلاحية الشريعة الإسلامية لكلّ زمان ومكان: وهذه الحقيقة يثبتها الواقع، فقد بقيت طوال أربعة عشر قرنا قائمة في بلاد الإسلام تؤدّي دورها المطلوب ويحصل بها المقصود قبل أن تعطّل في زمننا هذا.
- جمعها بين الثابت والمتغيّر: وهذا هو سرّ استمرارها وصلاحيتها لكل زمان ومكان، على خلاف شرائع الغرب، التي أخذت قديما -بسبب سلطان الكنيسة المحرِّفة لدين الله - بثبات كلّ شيء، وأخذت حديثا -بسبب سلطان نظرية التطور الداروينية- بتغيّر وتطوّر كل شيء، يقول الأستاذ مبيّنا نظرة دين الله تعالى وتعامله

47 المصدر نفسه ص171

48 المصدر نفسه ص172-175.

مع الثابت والمتغيّر: "فليس في الكون الذي خلقه الله ثبات مطلق لا يتغير، وليس فيه كذلك تغير لا ثبات فيه لشيء على الإطلاق ! وإنما فيه تغير دائم في الأشكال تحكمه قوانين ثابتة هي سنن الله في الكون...."[49] ويقول أيضا: "هنا -في هذا المجال بالذات- يتجلى لنا عنصر من عناصر الإعجاز في التشريع الرباني. في الحياة البشرية ثوابت ليس من شأنها أن تتغير لأنّ تغيرها يفسد حياة النّاس. وهذه نصت عليها الشريعة نصا صريحا ملزما. وهناك متغيرات ليس من شأنها أن تثبت على صورة معينة لأنّ تثبيتها يجمد الحياة ويعوقها عن النمو السوي، وهذه - في الشريعة الربانية- مفتوح فيها باب الاجتهاد، مع تثبيت الأصول التي تحكمها، بحيث لا تحل حراما، ولا تحرم حلالا، ولا تصادم مقاصد الشريعة. وبهذا تواكب الشريعة في جميع خطواتها وتضبط منطلقها في ذات الوقت، فلا تأسن من الجمود، ولا تجنح إلى الانحراف."[50]

- موقف الشريعة الربانية من العلاقة بين الفرد والمجتمع: الشرائع البشرية جميعها ضلّت في هذا الجانب، سواء قدمت الفرد على الجماعة، أو العكس، شريعة القرآن وازنت بينهما وأعطت لكل ذي حقّ حقّه، فلا الفردية جانحة، ولا الجماعة طاغية...[51]

- موقف الشريعة من ثنائية الجريمة والعقاب: في تاريخ الشرائع البشرية وفي واقعها المعاصر نوع من عدم التوازن بين الجريمة والعقاب، فتجد العقاب أحيانا يكون أقسى من الجريمة نفسها، بينما تجد الجريمة تنتشر وتنمو في ظل قصور العقاب أحيانا أخرى....يقول الأستاذ واصفا موقف الشريعة من الجريمة والعقاب وعلاقتهما بالفرد والمجتمع : "أما قضية الجريمة والعقاب فللشريعة فيها

49 المصدر نفسه ص 176.

50 المصدر نفسه 184.

51 المصدر نفسه ص185-188.

توزن ...إنها لا تقسو على الفرد لحساب الجماعة.... ولا تدلل المجرم كذلك حتى تجعله مجنيا عليه من المجتمع كما تفعل النظم التي تأثرت بمباحث علم النفس التحليلي، الذي يحسن أن نسميه (علم تبرير الجريمة)لأنّ هذا ما يؤدي إليه بالفعل! إنما تنظر الشريعة إلى الجريمة والعقاب بعين الفرد وعين الجماعة معاً في ذات الوقت..."[52] ومن ميزات شريعة الإسلام في خصوص ثنائية الجريمة والعقاب أنّها تضيق على الجريمة حتى لا تقع، وتضيق على العقاب حتى لا تصل إليه، أما الجريمة فبسد الذرائع تجاهها وتحصين المسلم منها.... وأما عقوبة فلأنّها تسقطها للضرورة والحرج والشبهات....[53]

- الشمولية: أي شمولية الشريعة لمناحي الحياة كلّها الصغيرة منها في أعين البشر والعظيمة على حدٍّ سواء، يقول الأستاذ في خصوص هذا المعلم: "ما من مجال من مجالات الحياة إلاّ وللشريعة مدخل فيه.. فهو -بالضرورة- واقع في واحد من هذه الأبواب الخمسة: حرام أو حلال أو مباح أو مندوب أو مكروه.. سواء أكان مجالا اقتصاديا أم سياسيا أم اجتماعيا أم أخلاقيا أم فكريا، أم ما يكون من ألوان النشاط البشري في الأرض.. وذلك من الإعجاز!"[54]

المطلب الخامس: الإعجاز العلمي

يبدأ الأستاذ بتقرير مهم، مفاده أنّ القرآن الكريم ليس كتابَ علم ولا كتاب فلك ولا كتاب فيزياء...[بل هو كتاب دعوة وهداية]، ولكنه مع ذلك قد حوى إشارات إلى كثير من مسائل وحقائق هذه العلوم.[55]

ووجه ما في القرآن من إعجاز علمي أنّه ذَكَرَ ظواهر كونية بعضها كان معلوما عند المخاطَبين الأوائل قُصِدَ به تذكيرهم وإزالة الغشاوة عن أبصارهم

52 المصدر نفسه ص188.

53 ينظر المصدر نفسه ص188 وما بعدها...

54 المصدر نفسه ص190-191.

55 ينظر المصدر نفسه ص193.

التي تبلدت بكثرة النظر فيها، فأعاد القرآن صياغة عرضها، صياغة أعادت إليها الحياة من جديد، صياغة تذكرهم بخالقها وتذكرهم بنظامها الذي يوافق و يتماشى مع ما جاء به القرآن... وأما ما لم يعلموا حقيقته فقد آمن الأوائل بظاهره... وتكشفت للمتأخرين عهدا بعد عهد بعض هذه الحقائق تكشفت لهم بما يوافق مختلف العلوم، وبما يوافق ما توصل إليه الإنسان بعد جهد جهيد وعمر مديد...هذا هو الإعجاز العلمي[56].

ثم مثّلَ له بنماذج، فذكر: مراحل تكوين الجنين[57]، وحقيقة الجبال وكونها أوتاد الأرض[58]، وتأثير الليل على الحيوان والنبات[59]، وخلق كل شيء أزواجا[60]، وترتيب أنواع العسل باعتبار جودتها[61]، وطبيعة السحب[62]، وقلة الأكسجين كلما صعدنا للأعلى[63]، واستمرار الكون في التوسع[64]...

ويختم الأستاذ تحليله للإعجاز العلمي بنظرة خاصة مفادها أنّ هذا النوع من الإعجاز خاص بالقرآن الكريم لا تشاركه فيه الكُتب المنزّلة قبله، مستدلا على ذلك بكون القرآن الكريم على خلاف غيره من الكتب لم يُنزّل لقوم مخصوصين ولا لمرحلة محدّدة بل للبشرية كافة ولمختلف العهود والعصور...ما استوجب خطابا يتلاءم مع هذا التنوع الزماني والمكاني والإنساني....[65]

---

56 ينظر المصدر نفسه ابتداء من الصفحة 193 إلى الصفحة 195.

57 المصدر نفسه ص194.

58 المصدر نفسه ص196.

59 المصدر نفسه ص197.

60 المصدر نفسه ص198.

61 المصدر نفسه ص199.

62 المصدر نفسه ص200.

63 المصدر نفسه ص201.

64 المصدر نفسه ص201-202.

65 المصدر نفسه ص 202.

المطلب السادس: الدراسة النقدية

سنحاول أن نقف على بعض آراء المفكر رحمه الله لنناقشها نثمِّن بعضها وننتقد بعضها الآخر، في شكل نقاط متتابعة ومتتالية نبدأها بما يراه صاحب المقال صوابا قد أضاف به المفكر للدرس الإعجازي قيمة معرفية جديدة أو على الأقلّ أكّد وقرّر ما كان مسطّرا قبله ومعلوما، ونردفها بعد ذلك بما يحسبه صاحب المقال مجانبة للصواب وعدولا عنه.

فممّا يسجل للمفكر ما يأتي:

أ- الإعجاز البياني عند المفكّر يستغرق القرآن كلّه، إمّا من خلال ظواهر لغوية عامة وقد مثّلَ لها بالتكرار الذي اصطلح عليه بالتشابه أو التنويع، أو من خلال لمسات بيانية تختلف باختلاف السياقات والآيات والكلمات...

ب- الإعجاز البياني يمثل المستوى الأول لإعجاز القرآن الكريم، وهو لوحده كافي شافي، يؤدّي المقصود ويفي بالمطلوب، لكن القرآن الكريم جعله إضافة إلى ذلك مطية باقي أوجه الإعجاز كالدعوي، والتربوي، والتشريعي، والعلمي...

ت- إنّ أوجه الإعجاز جميعها متداخلة فيما بينها يخدم بعضها بعضا، فمادة الإعجاز الدعوي هي ذاتها مادة الإعجاز التربوي، وهي نفسها موضوع الإعجاز التشريعي...وجميع هذه الأوجه تنطلق من الإعجاز البياني...

وممّا ينتقد عليه المفكر ما يأتي:

1. بين المعجزة والبرهان: المعجزة عند المفكر رحمه الله مرادفة للبرهان؛ فقد سماها كذلك في مواضع من كتابه، وأشار إلى كون الغاية من الإعجاز هي إثبات صدق النبوة وربانية القرآن الكريم...[66]، وهذا خطأ يقع فيه أكثر من تحدث عن مسألة إعجاز القرآن الكريم، قديما وحديثا، إنّ بين الإعجاز والبرهان فرق بيّن وظاهر فالبرهان أوسع وأعم من المعجزة؛ إذ إنّه يحصل بها وبغيرها، فلعلّ أكبر

66 تكررت هذه الدعوة في الكتاب كلّه، أخصُّ ها هنا الإحالة إلى مقدمة الكتاب وخاتمته فقط، ص9-204...

دليل على صدق نبوة محمد صلى الله عليه وسلّم وربانية القرآن الكريم دعوته إلى التوحيد، هذه الحقيقة الجلية التي توافق الفطر السليمة والعقول الصحيحة وسنن الكون ونظامه كلّه...ولا نسمي ذلك معجزة، والبرهان على ربانية القرآن من حيث لغته - مثلا- يقع أحيان بصوت واحد كنحو صوت السين في سورة النّاس، وبالكلمة الواحدة كنحو قوله تعالى (كبكبوا) و(زحزحوا)...ويقع بكل آية من كتاب الله تعالى، بينما الإعجاز الذي تحدّى الله تعالى به الثقلين لا يقع بأقل من سورة من القرآن الكريم....

إنّ إعجاز القرآن الكريم، برهان نعم، لكنّه أخصّ من ذلك من جهة كونه مقرونا بالتحدّي؛ فهو البرهان الوحيد الذي يمكن للمسلم أن يقدمه متحديا البشرية كافّة دون خوف ولا وجل ودون شك ولا ريب في عدم قدرتهم على معارضته، لكن باقي البراهين نقدمها لإثبات ربانية القرآن لكنها لم تُعرض في كتاب الله تعالى من أجل التحدّي بها...

البراهين مقدَمة للمؤمنين والكافرين على حدٍّ سواء، فهؤلاء يزدادون إيمانا مع إيمانهم، وأولئك يؤمنون ويستجيبون أو تكون عليهم حجة يوم القيامة، أمّا الإعجاز فهو موجّه للكافرين بهذه الرسالة ابتداء وأصالة، دون المؤمنين...فالمؤمن لا يمكن أن يكون مجالا أو مادة وموضوعا لتحدي القرآن الكريم؛ انطلاقا من كون المؤمن لا يسعى كذلك إلاّ إذا كان مذعنا لكتاب الله تعالى مؤمنا بربانيته....

2. القدر الذي يقع به الإعجاز: نصّ المُفكر رحمه الله أنّ القدر الذي تحدّى به القرآن الثقلين ووقع به الإعجاز هو القرآن كله، أو عشر سور مثله ولو مفتريات، أو سورة مثله، أو سورة من مثله [67]. لكن السؤال الذي نطرحه على المفكّر وعلى كلّ مَن توسع في تتبع وتَعداد أوجه الإعجاز، هو: (هل هذه الأوجه التي

67 المصدر نفسه ص8-9.

ذكرتموها تستغرق القرآن كلّه؟ أو هل تستغرق هذا المقدار الذي تحدّى به القرآن ؟.... طبعا سيكون الجواب ولا بدّ: (لا). فكم من سورة خلت من الإعجاز العلمي، والإعجاز الغيبي، والإعجاز التشريعي...ونحو ذلك.

وهذا الأمر يردُّ وينفي كون الإعجاز وقع بهذه الأوجه، من جهة إمكانية الْتِفات المتحدّين المعارضين للقرآن الكريم على هذا التحدّي من خلال تقديم سورة أو أكثر يعارضون بها القرآن الكريم وهي خالية من الأوجه المذكورة، ومعارضتهم ستكون مقبولة صحيحة انطلاقا من كونها تستجيب للمطلوب وهو الإتيان بسورة مثله.... وخالية في الوقت نفسه من وجه الإعجاز؛ لهذا ينبغي لوجه الإعجاز حتى يكون صحيحا أن يستغرق المِقدار المُعْجِز كلِّه؛ فلا يترك للمعارضين فرصة للالتفات على التحدي.

3. التفريق بين معجزة القرآن الكريم وبين غيرها من المعجزات:

اتخذ المُفكِر في هذا الصدد موقفين اثنين أوّلهما التسوية بين المعجزات كلّها من حيث حقيقتها وغايتها، وثانيهما التفريق بينها من حيث وجه إعجازها.

أمّا بخصوص التسوية فيذكر رحمه الله أنّ الفرق لا يبدو ظاهرا بين مختلف المعجزات، فهي استمرار لظاهرة تأييد الأنبياء بالخوارق المناسبة لأقوامهم وظروفهم، فمعجزات الأنبياء كانت من جنس ما يحسنه أقوامهم، وكذلك القرآن نزل أوّل ما نزل بين قوم يحسنون الكلام ويهتمون له ويحتفلون به....[68] ، وهنا في خصوص هذه التسوية يبدو أنّ المفكر قد ذهل عن كثير من الفروق التي ذكرها علماء الإعجاز قديما وحديثا، فقد فرَّقوا بين القرآن الكريم معجزة الرسالة الخاتمة وبين مختلف معجزات الرسالات السابقة...من حيث المعنوية والمادية، فالمعجزات السابقة جميعها مادية وهذه على خلافها معنوية، ومن حيث الاستمرار والدوام في مقابل الاندثار والزوال، فجميع المعجزات السابقة زالت واندثرت وهذه

68 المصدر نفسه ص8.

على خلافها محفوظة ومستمرة، ومن حيث اقتران المعجزة بتعاليم النبوة وانفصالها عنها، فجميع المعجزات السابقة منفصلة عن مادة وماهية الدعوة، وهذه على خلافها هي نفسها مادة الدعوة، هي الدليل والمدلول عليه في الوقت نفسه....إلخ

ولا يمكننا الجزم - والله أعلم- أنّ المفكر يخالف في مثل هذه الخصوصيات التي تميّزت بها معجزة القرآن الكريم، أو ذهل عنها، لكن يبدو أنّ كلامه في التسوية بين جميع المعجزات من حيث حقيقتها وطبيعتها جاء في سياق محدود، هو سياق بيان الغاية من المعجزات، وموافقتها لما يحسنه المخاطَبين بها...

وأمّا بخصوص التفريق فيذكر، أنّ القرآن الكريم وحده اختصّ بهذه الأوجه الإعجازية دون سواه، بيانيا، أو دعويا، أو تربويا، أو تشريعيا، أوعلميا....

سنقف على بعض كلامه في هذا الموضوع، ونحول استبيان الأمر، وحلّ هذا الإشكال، هل فعلا اختصَّ القرآن بهذه الأوجه دون سائر الكتب المنزلة...يقول الأستاذ متحدثا عن الإعجاز الدعوي: ".... ولكن القرائن كلها تقول إنه ما من كتاب –قبل القرآن- تحدث عن هذه القضية بهذا العمق، وهذه السعة، وهذا الوضوح، وهذا الشمول، ودخل بها من كل منافذ الفطرة، ومن كل مسارب النفس، بحيث تستوعب النفس من جميع أقطارها، وتتغلغل فيها إلى أعمق أعماقها كما فعل القرآن...كلمة الله الأخيرة إلى البشرية، التي تمت بها النعمة واكتمل الدين: قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا۟ بِٱلْأَزْلَٰمِ ۚ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ ۗ ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ ۚ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ

وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ فَمَنِ ٱضۡطُرَّ فِي مَخۡمَصَةٍ غَيۡرَ مُتَجَانِفٖ لِّإِثۡمٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٣ ﴾ المائدة: ٣] وذلك جانب من جوانب الإعجاز في هذا الكتاب الجليل، جدير بالتأمل، والتدبّر، والالتفات." [69]

وفي خصوص الإعجاز العلمي يقول: "... يلفت النظر ولا شك أن أيّا من الكتب المنزلة السابقة لم يحو شيئا من هذه الإشارات الكونية الواردة في القرآن والله أعلم بما ينزل. فقد شاء الله أن يتميز الكتاب الذي يحمل كلمة السماء الأخيرة للبشرية كافة بخصائص لا توجد في غيره...."[70]

إنّ قضية لا إله إلاّ الله، هي القضية الأولى للكتب المنزّلة كلّها، وتجليتها تجلية تبلغ الغاية وإيضاحها إلى النهاية، هي مهمة الأنبياء والمرسلين أجمعين...ولو بقي من بيانها شيء قليل لم يؤدَّ لكان ذلك حجة للكافرين يحاجون به يوم القيامة، فالحجة قامت تامة كاملة ببيان الأنبياء كلّهم دون استثناء، وما قدمه الأستاذ من نسبة الإعجاز للقرآن الكريم ونفيه عن غيره من الكتب في بيان هذه القضية والدعوة إليها من حيث موضوعها وحقيقتها بعيد...ويقدح في دعوة الأنبياء والمرسلين، لكن إذا كان هناك فرق بين دعوة القرآن الكريم ودعوة غيره من الكتب المنزّلة فهي في لغة القرآن في بيانه الذي اختصَّ به، واستعمله في التربية والدعوة ، وليس في حقيقة التربية والدعوة وموضوعهما...

أمّا بخصوص ما يسمى بالإعجاز العلمي ، وتخصيص الأستاذُ القرآنَ به دون سواه، فإنّ الكتب المنزّلة قبل القرآن الكريم لا نستبعد أن تكون قد ذكرت أشياء عن الظواهر الكونية، وأمورا علمية...وهذا هو الظاهر والمتوجّه ، فعقيدة التوحيد التي أُنزلت هذه الكتب لبيانها تَظْهر أوّل ما تظهر في الوجود، وبها يُستدل على صحّتها وصوابها ، فهذا إبراهيم أبو الأنبياء عليهم وعلى رسولنا أفضل الصلاة

69 المصدر نفسه ص94

70 المصدر نفسه ص202.

وأزكى التسليم يقصّ علينا ربنا سبحانه وتعالى تفاعله مع بعض هذه الظواهر الكونية وكيف استدلّ بها على ربوبيته ووحدانيته: **قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ ۖ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾ ﴾ الأنعام: ٧٧ - ٧٩

وما جاء في هذه الكتب حقٌّ ولا بد، متطابق مع حقيقة هذه الظواهر؛ باعتبارها كلام الله تعالى أوحى به إلى أنبيائه عليهم السلام، وقد كان النّاس يومها جاهلين بحقيقة هذه الظواهر وكانوا يسمونها ويصفونها بما ليس فيها، لكن نجزم ونقطع أنّ الكتب المنزّلة قبل القرآن كل ما ذكرته عن هذه الظواهر حق مطابق وموافق لحقيقة هذه الظواهر كما يثبتها العلم الصحيح... فلا وجه لتخصيص القرآن الكريم بهذا الوجه دون سواه من الكتب المنزلة قبله.

الخاتمة:

إنّ أهمّ نتيجة نخرج بها من هذا البحث الوجيز هو كون المفكّر محمد قطب رحمه الله إنّما تناول مسألة إعجاز القرآن الكريم انطلاقا من تخصصه واهتماماته، فبدأ أوّلا بذكر ما أجمعت عليه الأمة وهو الإعجاز البياني ، لينتقل بعد ذلك إلى ما دندن حوله في جميع كتبه، وأمضى حياته كلّها في بيانه والدعوة إليه قضية لا إله إلاّ الله دعوة وتربية وتشريعا...

غير أنّ هذا الاهتمام بالدعوة إلى التوحيد، والتربية به وعليه، وتشريعاته، جعلته يذهل عن حقيقة الإعجاز فيه، فذهب المفكر إلى كون الإعجاز في حقيقة

الدعوة وجلائها، ووسائل التربية وتمكنّها، وحِكمة وعدالة تشريعات القرآن الكريم... ناسيا أنّ هذه المواصفات موجودة في الكُتب المنزلة جميعها، موجودة في القرآن والسنة على حدٍّ سواء، وأنّ التّحدّي لم يقع بها حتى نصفها بالإعجاز.....، وإنما الذي ميَّز هذه الأوجه الثلاثة في القرآن الكريم هو طريقة عرضها بلغة معجزة في نظمها وبيانها...

وإنّ العامل الأوّل وراء هذا التوسّع في ذكر أوجه الإعجاز عند أكثر العلماء المهتمين بالدرس الإعجازي قديما وحديثا هو عدم التفريق بين المعجزة والبرهان، وكذا ذلك التداخل بين مفهوم المعجزة في مختلف الحقول المعرفية كالعقيدة والأصول والسيرة والعلم الذي اختص بدراسة الإعجاز في خصوص القرآن الكريم....

ولعلّ أهم توصية نذكرها في آخر هذه المقالة هو مواصلة استقراء ودراسة آراء أعلام الإسلام في إعجاز القرآن الكريم، وكذا محاولة التنظير والتأصيل للدرس الإعجازي من حيث البحث في حقيقة المعجزة والتفريق بين مفهومها في مختلف الحقول المعرفية، وفي حقيقة التحدّي وشروطه، والمثلية....إلخ.

المصادر والمراجع:

- محمد المجذوب، علماء ومفكرون عرفتهم، دار الشواف، الرياض، الطبعة الرابعة 1992م.
- محمد قطب، لا يأتون بمثله، دار الشروق، القاهرة، الطبعة الثانية 1420هـ 2004م.
- محمد قطب، دراسات قرآنية، دار الشروق، القاهرة، الطبعة السابعة 1414هـ 1993م.